كأنه ضفدع فى لجة هرمٌ إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدرٌ مع قربه ما أردنا ذلك القدرا

ولا يشفق ابن الرومى على هذا المغنى حين يشبهه بالضفدعة فى شكله ، أو كأنه بالعٌ حجراً ، بل إنه يكره الخلودَ بقربه ويتمنى البعاد عنه ولو بالموت . وذلك لأنه زرىُّ الشكل ، بل منكرُ الصوت ، فهو حين يغنى يحشرج فيقول فيه :

يفتحُ فاهُ من الجهاد كما يفتحُ فاه لأعظم اللقم[1]
أبحٌ فيه شذوذ حشرجة منظومة فى مقاطع النغم
نبرُته غصةٌ وهزّته مثل نبيب التيوس فى الغنم

والفم ينفتح للصوت والغناء كما ينفتح للقم الكبيرة سواء بسواء ، فيبدو مثل كهف مظلم تنطلق منه الحشرجة إثر الحشرجة ، يقطعُ النغمَ ويهتز كالتيس ، فلا يُطرب ولا يُسكر ، وإنما يبعثُ مع الخمر شعوراً بالقتل كأن السامع يشربُ دمه فى كأسه . وابنُ الرومى أطال النظر فى المغنين لعصره ، فرأى القبحَ فى وجوههم ، والشذوذ فى أصواتهم ، والنكرَ فى أعناقهم حين تهتز وتتلوى ، فوصف قينة تغنى :

تضغطُ الصوتَ الذى تشدو به غصةٌ فى حلقها مُعترضه
فإذا غنتْ بدا فى جيدها كل عرق مثل بيت الأرَضه[2]

وأرانا حركاتها وهى تضغط الصوت ، فتبدو العروق فى جيدها كما تبدو الأرضة ، فتلاعب بالمعانى والأشكال ، وقرنها بصور محتقرة ليضعف من شأن المهجو وليعرض موضعَ العيب فى الحركات ، ويصوّر ببراعته ولطف تخيله للغناء القبيح صورة لا تشبهها الصور الجامدة عند المصورين القدماء ، وإنما تجمع إلى ذلك الألوان والحركات كأحدث ما يصنع التصوير الفنى فى عصرنا . ويعجبك قوله فى رجل طويل الأنف :

وإذا نهضتَ كبا بوجـ ـهكَ للجبين المعطس[3]

---

(١) نب التيس : صاح عند الهياج ، والنبيب هو الضجيج فى الصوت .
(٢) الأرضة (بفتحتين) دويبة تأكل الخشب .
(٣) المعطس . الأنف ج معاطس .